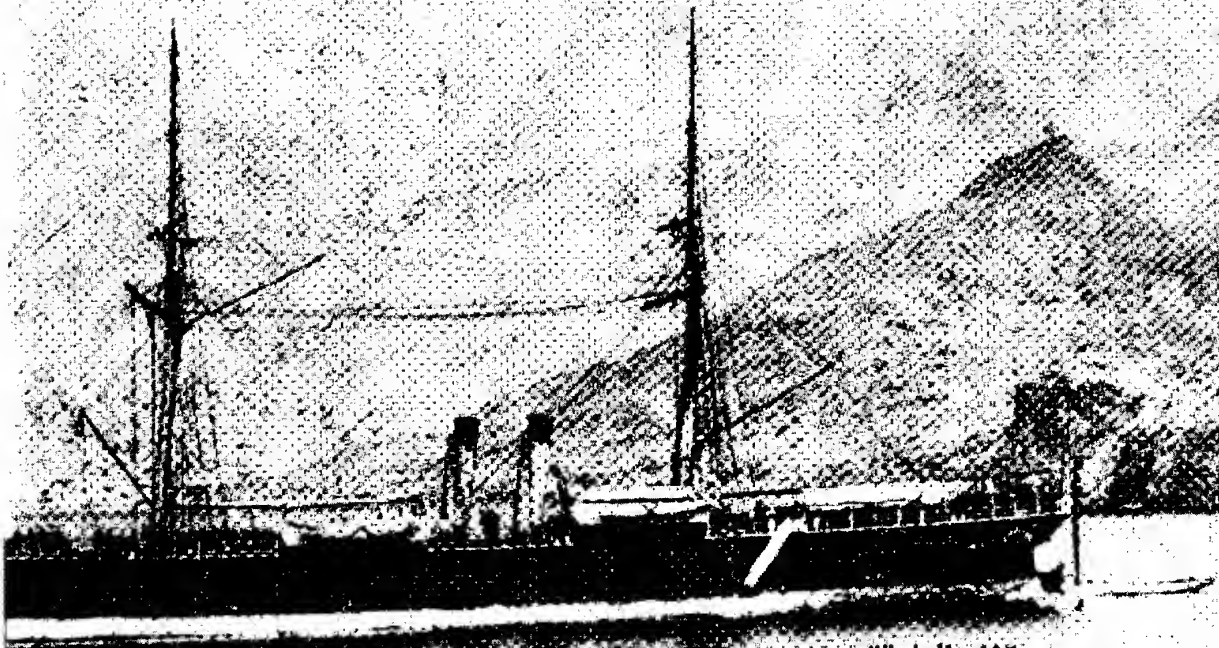


وَصَفَةُ الْخَلِيعِ الْعَرَبِيَّةِ



١٥٦ - الوثيقة

للرحالة والتجارة الروسية

بين ١٨٩٧م و ١٩٠٦م (١)

بقلم : أوليج ردكين

يبدو أن المصالح السياسية والاقتصادية الروسية المرتبطة بالخليج تطورت في بداية القرن التاسع عشر . وقد رفعت في وقت مبكر في عام ١٨٢٥م مذكرة للحكومة الروسية بخصوص مشروع إنشاء مخفر أمامي روسي في مدينة مسقط (عمان) لترويج الملاحة والتجارة الروسية في هذه المنطقة . وكان ذلك المشروع هو المشروع الوحيد في هذا الموضوع حتى نهاية القرن . وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان قد أصبح الخليج العربي منطقة تنافس بين روسيا والقوى الاستعمارية في تلك الحقبة من الزمن . وهي كل من بريطانيا العظمى وإلى حد ما فرنسا وألمانيا . واعتبرت روسيا منطقة الخليج أقرب طريق للوصول إلى المحيط الهندي والشرق الأقصى وذات أهمية تجارية لها .

وكانت المنطقة تحت سيطرة الإنجليز كلية لمدة قرنين عسكرياً وسياسياً واقتصادياً . فاستهدفت سياسة روسيا الخارجية إنشاء كيائها السياسي الدائم في المنطقة وإقامة علاقات تجارية مع الخليج . أي كان لروسيا هدفان، تنظيم رحلات تجارية منتظمة إليه من جهة، وتدعيمها بوجودها العسكري في الخليج فأرسلت روسيا لأول مرة سفناً عسكرية وتجارية إلى منطقة الخليج في عام ١٩٠٠ م .

ففي عام ١٨٩٧م تم ابتعاث قنصل روسي اسمه أدموف^(٢) إلى الخليج العربي . ومن سوء الحظ ليس لدينا أية معلومات عن هذه الزيارة . وتوجد وثيقة في الأرشيفات الروسية تشهد بأنه في بداية القرن العشرين أرسلت حملة سرية خاصة إلى الخليج بغرض دراسة الموانئ الموجودة فيه . وإعداد تقرير عنها .

وفي بداية أبريل ١٩٠٠م بدأ "فاسيلي رومانوف" مغامراته البحرية بناءً على تعليمات من جمعية علم الإنسان في جامعة سان بطرسبرج وبمساعدة من الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة . وانطلق في رحلات استكشافية محفوفة بالمخاطر، في سواحل الخليج العربي ومصب شط العرب، في وجه العراقيل التي أقامتها السلطات الإنجليزية في طريقه طالبة منه دفع مبالغ ضخمة لسفره من الإسكندرية إلى الخليج العربي بعد أن عرفت بأنه مواطن روسي . ورغم كل هذه الصعوبات كانت رحلاته ناجحة كما يظهر من تقاريره عن الموانئ الخليجية . فضلاً عن الوصف للموانئ الخليجية تتضمن تقاريره معلومات عن السكان ونمو التجارة والحرف اليدوية الرائجة فيها .

وبخصوص السلع التجارية يصرح رومانوف^(٣) : "بأن الإنجليز اهتموا باستيراد النفط بصفة خاصة . وازداد الطلب للنفط من عام إلى عام في منطقة الخليج الساحلية والهند . وفي هذا العام تم استيراد النفط بقيمة ٨٠٠٠ جنيه .

وأنهم يستخدمون الفحم أيضاً المستورد من إنجلترا". وهناك بيانات عن علم الأعراق والتاريخ في تقرير رومانوف. وعقب زيارته للكويت كتب رومانوف: "تقع مدينة الكويت الصغيرة على الساحل الخليجي الغربي على خط العرض ٢٨° وحاكمها يميل إلى الروس بمشاعر الود على الرغم من أنه يكسب رزقه من الإنجليز الذين يجهدون لإرضائه ولحمايته. . . والكويت (ولنجة) من الموانئ الرئيسية والمستودعات للسلع التجارية على الساحل العربي. وهو مكان لصيد السمك وعرق اللؤلؤ. ويتم تصدير عرق اللؤلؤ بكميات ضخمة إلى المرسى - فاسيلي رومانوف. ٢٠ أكتوبر ١٩٠٠م" (٤).

وفي وقت لاحق، أي في عام ١٩٠١م، أعد (سيرو مياتنيكوف) كتاباً عن السفر إلى الخليج العربي لنشره باللغة الروسية.

ولم يكن عند الروس آنئذ إلا بيانات منتشرة عن منطقة الخليج مبنية على المصادر الخارجية. وكما ورد في مذكرة من وزارة المالية موجهة إلى المكتب الرئيسي للجمعية الروسية للملاحة البخارية والتجارة: "إن العائق الرئيسي هو عدم توافر المعلومات عن البلاد وعدم توافر المعلومات عن سير الأحداث هناك في وقت مناسب على الساحتين السياسية والتجارية" (٥).

وفي رحلاتهم الأولية إلى الخليج استخدم الروس الخرائط الملاحية البريطانية لأن المنطقة كانت مجهولة للسفن الروسية. فكانت من مهام الرحلة إعداد الوصف للموانئ والخطوط الملاحية المساعدة للسفن الروسية التجارية. وكان هذا العمل مهماً لأنه مهد الطريق للسفن التجارية الروسية لإنشاء خط بحري بين موانئ البحر الأسود والخليج العربي بالإضافة إلى تنظيم رحلات لسفن القوات البحرية.

فكان الغرض من هذا الحصول على معلومات لازمة كمساعدة لتخطيط خطوات مقبلة يجب تنفيذها في المنطقة فليس من الغريب أن ثمة الرحلات

الأولية كانت تدوين وصف للمنطقة من وجهات النظر المختلفة أي من حيث الملاحاة والطقس والأعراف والتقاليد والإمكانات العسكرية . . الخ .

وكانت الاكتشافات الأولية عن الخليج تدور حول رصد الأحوال الجوية من متن السفينة الحربية "جلياك" في الخليج العربي في عام ١٩٠٠م^(٦) . وكانت "جلياك" في طريقها إلى الباسيفيك وقامت بزيارة لموانئ مختلفة في الخليج . ورصدت الأحوال الجوية كل ٤ ساعات . وقبل ذلك ما كان لدى الروس أي معلومات عن الطقس في الخليج . وكذلك كانت جلياك قد جمعت معلومات عن الظروف الملاحية في منطقة البصرة والكويت . فقد جاء في التقرير : "قد وظفنا مرشداً في بوشهر ليرشد سفينتنا في شط العرب بواقع ٦ روبيات لكل رحلة لكل قدم من العمق بالإضافة إلى رسوم الإرساء بروبيتين لكل يوم في البصرة . والحجر الصحي فيها يفرض على كل سفينة تجيء من أماكن خطيرة ومن أي ميناء فارسي .

الكويت : إن الإحداثيات لمرسى الكويت كالآتي : الحافة الشمالية للمدينة إس دبليو ١٩ ورأس جزيرة قرين إس دبليو ٤٨ ووسط الهضبة رأس العشيق إس دبليو ٧٢ ونصف الدرجة . وجبل البرج إس أو ١٧ ونصف الدرجة . والعمق ١٠ أقدام وفي الأسفل يوجد القرين والصدف . والمد والجزر بطيء حوالي ميل بحري واحد .

والشاطئ الرملي (يوحا) المذكور في الخريطة البريطانية ليس إلا جزيرة صغيرة وفيها بعض الأشجار . ويمكن استخدامها كنقطة المراجعة للدخول إلى ميناء الكويت^(٧) .

ويذكر التقرير معلومات عن العلاقات بين المارينز الروس والسكان المحليين .

وتقول برقية سرية حول زيارة جليك إلى البصرة في ٣ مارس عام ١٩٠٠ م^(٨) : "تلقت جليك ترحيباً حاراً في البصرة رغم مكائد الإنجليز . وكان للزيارة أثر طيب على السكان المحليين" .

وفي وقت لاحق، أثناء زيارة الأسطولين الروسي والفرنسي "لقيت الطرادات ترحيباً في الخليج بحماس فوق العادة وأثارت زيارتهما تعليقات انتقادية نحو إنجلترا . ولما رأى الناس الضباط الروس والفرنسيين معا كل مرة، قالوا بأنه يرمز إلى بشرى سارة للخليج، ويخفف حدة مزاعم الإنجليز بأحقيتهم للحكم في الخليج"^(٩) .

ومن عام ١٩٠١م بدأت رحلات تجارية منتظمة بالسفن البخارية بين روسيا ومنطقة الخليج مما سبب الخوف والحسد بين صفوف الإنجليز .

وأثناء الاستعدادات لانطلاق الرحلات الأولية الاختبارية للخليج العربي اعتماداً على المعلومات المتواجدة لديهم، قد عثروا على تقرير حول الظروف الملاحية في الخليج^(١٠) من بين الوثائق الأرشفية ويقول التقرير : "لا يوجد حتى ميناء واحد في الخليج العربي وخليج عمان المجاور وترسو السفن بالقرب من جسك أو البحرين أو بوشهر على بعد ٣ أميال من الشاطئ، وميلين ونصف الميل في بندر عباس، وميل ونصف الميل في لنجة من قصر الشيخ . وفي مسقط فإن البحر بقرب الشاطئ عميق جداً فترسوه السفن بالقرب من القلعة على بعد نصف الميل من قصر الشيخ" .

وفي عام ١٩٠٣م قام الطراد الروسي "بويارين" بزيارة الخليج وقد جاء ذكره في إحدى الوثائق الأرشفية أيضاً^(١١) .

"وفي ١٠ فبراير زرنا مسقط . ويواجه سلطان (عمان) في الوقت الحاضر مشاكل مالية ولم يدفع الرواتب لحرسه الخاص منذ ٤ شهور . ومدخوله قليل

جداً بسبب سوء الأحوال التجارية وقلة الضرائب التي هي المصدر الوحيد للدخل . بالإضافة إلى الإيجار الذي يحصل عليه من الحكومة البريطانية" (١٣) .

"وفي طريقنا إلى الباسيفيك تلقينا الأوامر لزيارة مسقط وميناء آخر من الموانئ الخليجية لمواصلة علاقات الصداقة والاحترام القائمة بين روسيا وجيرانها" (١٣) .

وقام المارينز بزيارة الكويت أيضاً . ويتضمن تقريرهم وصفاً لقصور حكام الكويت ومسقط وكذلك ذكر الوضع السياسي في الخليج والأعراف والتقاليد الرائجة هناك . وحسب التقاليد المتبعة بها، يأخذ صاحب البيت قطعة من اللحم ويغطيها بالأرز، ويدخلها في فم ضيفه المفضل والمحترم .

ومن الموضوعات التي تعالجها بويارين بصفة خاصة، موضوع الملاحة في الخليج . ومنها وصف للمراسي والرياح وقاع البحر" . يكون المدخل إلى الكويت ملائماً في ساعات النهار فحسب أو أثناء الليالي القمرية لأن المعالم المنخفضة لا يمكن رؤيتها إلا من قريب من السواحل" (١٤) .

ويوجد بعض المعلومات عن الخطط لبسط سكة الحديد إلى الكويت لأنه يضع حداً على قوتها" (١٥) .

ويذكر التقرير بأن أحسن وقت في السنة لزيارة السفن الروسية للكويت هو فبراير ومارس . "لأنه هادئ وعذب نسبياً رغم حدة رياح الشمال" (١٦) .

استغرب الروس من كثرة الأسلحة في الخليج . فجاء في التقرير : "لا يجوز تقديم الأسلحة كهدية، لأنها توجد بكثرة في الخليج من أنواع جيدة . ويمتلك السكان المحليون الأسلحة العادية والنارية على السواء" .

وعقب الرحلة الاختبارية للسفينة التجارية الروسية "كورنيلوف" من ٣ فبراير - ١١ مايو صدر تقرير (١٧) يتضمن وصفاً للموانئ الخليجية التي زارتها

السفينة البخارية ومنه (القنوات الملاحية، والمرشدين، ومواصفات السواحل، وعمق المياه في الموانئ والفشوت . . الخ) .

وبخصوص زيارتها لمسقط قد جاء الآتي : "وفي ٣ مارس في الساعة السابعة والنصف صباحاً وصلنا إلى مسقط . وميناؤها صغير وترسو فيه عدة سفن بواسطة الثقل على بعد حوالي ربع ميل من الساحل .

وبسبب فقدان الموارد لدى سلطان مسقط، فإنه يحصل على سبل العيش من حكومة الهند التي تمارس الضغط عليه ليخضع للنفوذ الإنجليزي . وكان سلطان مسقط مؤيداً للمشروع الجديد^(١٨) . وردت قلعة مسقط بطلقات نارية تحية لسفينة "كورنيلوف" ورفعت لأول مرة العلم الروسي التجاري فوق القلعة^(١٩) .

وفي عام ١٩٠٦م قامت السفن التجارية الروسية برحلات منتظمة مرتين في الشهر للخليج . وقد أعدت وثيقة تحت عنوان "وصف عن الخليج العربي المعد من دائرة الإحصاءات الخارجية لوزارة القوات البحرية الروسية" في ١٩٠٦م وفيها عن الزيارات الروسية السابقة للخليج^(٢٠) .

"إن مساحة الخليج العربي ٥٢٥ ميلاً طولاً و ٢٠٠ ميل عرضاً غالباً . وفي جنوبه يربطه بالمحيط الهندي مضيق هرمز وعرضه ٢٨ ميلاً .

والساحل الشمالي (إيراني) منطقة جبلية شديدة الانحدار ومنقطعة فجأة وبفجوات عميقة في الساحل . في حين يقع خليجان منخفضان في الجنوب على الساحل العربي، أي خليج هرمز وخليج البحرين . وعلى الساحل توجد صخور ووديان جافة . وعلى الساحل الشمالي سلسلة من الجبال .

هناك عدة قصبات تجارية عربية تماماً تحتكر التجارة الساحلية . والساحل الجنوبي رملي وقاحل ومهجور ولا توجد النخيل إلا بجوار القرى .

والسكان في الساحل الجنوبي هم العرب تماماً ورغم قلة الخضرة يوجد التمر بكثرة . ويعتبر التمر من شط العرب من أجود التمور في العالم .

توجد جزر كبيرة عديدة في الخليج . كالبحرين وقشم والشيخ شعيب وقيس وعدد كبير من جزر صغيرة . والمياه الخليجية ثرية في الحيوانات المائية وتصلح لصيد السمك طول السنة . ويتم تجفيف الأسماك في الشمس وتباع في الجزيرة العربية وزنجبار وحتى الهند .

ويشكل صيد اللؤلؤ المصدر الرئيسي الطبيعي للدخل . ويوجد الصدف في طول خط الساحل وعلى الرمال والجزر . وتشارك ٥٠٠٠ سفينة و٧٠٠٠٠ نسمة في صيد اللؤلؤ سنوياً . ويبلغ الدخل من اللؤلؤ ٢,٥ مليون روبل سنوياً وتقع أثرى مصائد اللؤلؤ بالقرب من البحرين وتصدر اللآلئ لكل من بغداد وبومبي وأوروبا .

وتملك إيران الساحل الشمالي بالكامل، والساحل الجنوبي لكل من تركيا وسلطنة عمان فمستقلة . ويسيطر الإنجليز على كل من جزر البحرين وميناء بسيدو الواقع على الجزء الغربي لجزيرة قيس، وميناء جسك على الساحل الشمالي لمضيق هرمز" .

يصرح التقرير بأن إيران تمارس التجارة عن طريق بغداد والبصرة عبر شط العرب والموانئ الخليجية أيضاً .

ويواصل التقرير قائلاً بأن "التجارة كانت حتى الآن في أيدي الإنجليز تماماً . واعتبر الإنجليز أنفسهم حكام الخليج العربي الأكفاء حقاً . وكان عدد السفن التجارية من البلاد الأخرى تافهاً" .

يذكر التقرير أهمية الكابلات التلغرافية التي مرت بالخليج وكانت تحت إدارة شركة إنجليزية هندية وفي الحقيقة بأيدي الإنجليز برمتها .

ويتضمن التقرير وصفاً للموانئ والمدن الخليجية . وعلى سبيل المثال جاء وصف لبناء البصرة كالآتي : "إن البصرة مركز تجاري هام على ساحل شط العرب . وعدد سكانها عشرون ألف نسمة . وأرضها خصبة ويزرع فيها التمر ويتم تصديره إلى الخارج . وتصدر الخيل أيضاً من البصرة . وتبلغ قيمة الصادرات ١٤ مليون روبل وقيمة الواردات ١٣ مليون روبل سنوياً . وتستورد البصرة من الهند القهوة والنيلة والأرز والتوابل والأخشاب من أجل صناعة السفن . ومن الصادرات الرئيسية يمكن ذكر الألواح الخشبية الصغيرة التي تستخدم لتعبئة التمر . وتستورد هذه الأخشاب من آسيا الوسطى وتصدر إلى الخارج سنوياً بقيمة ٣ ملايين من الروبلات .

وإضافة إلى ذلك تشكل البصرة نقطة مرور هامة ما بين بغداد والخليج العربي . وتنظم شركتان إحداهما إنجليزية والثانية تركية ، الخطوط الملاحية . وعرض التجار من كل من البصرة وبغداد استعدادهم لإنشاء شركة ملاحية بخارية . وعرضوا على السفارة الروسية في استنبول إنشاءها تحت علم روسي . ووجهوا دعوة للجمعية الروسية للملاحة البخارية والتجارة للمشاركة في المشروع^(٢١) .

ويعالج التقرير في بعض أجزائه وصفاً لبعض الأماكن :

الكويت :

إن الكويت أحسن ميناء على ساحل الخليج العربي وتقع على ساحل بمياه عميقة وتتعرض لرياح شمالية غربية فقط . ويؤدي شارع جيد من الميناء إلى الداخل . وتجري فيه تجارة نشطة في جلد الحمل ويصدر التجار الروس الجلود إلى الكويت . وهذه السلعة رابحة جداً . ومن بين صادرات الكويت

يمكن ذكر الصوف والجلود والعنبر . والكويت لا تستورد البضائع التجارية لأن السفن البخارية لا تزورها على العموم . غير أن السفن التجارية الروسية عند زيارتها للكويت تأتي بالبضائع كالكيروسين والخشب والقماش والفابريكات الخفيفة . الخ .

وفي سلطنة عمان على ساحل خليج عمان تقع عاصمته مسقط وعدد سكانها ٥٠,٠٠٠ نسمة .

تشكل مسقط الميناء الرئيسي والوحيد في سائر عمان . وتبلغ صادراتها ٤ ملايين روبل سنوياً . ومن صادراتها الرئيسية يجدر ذكر التمر الذي ينضج قبل شهرين من تمر البصرة، والفواكه والسمك . وتبلغ قيمة الواردات السنوية ٨ ملايين روبل وتتكون بصفة رئيسية من الأرز والقهوة والسكر والسلع الخفيفة والمنسوجات والقمح والحبوب الأخرى، والأسلحة . وتزور مسقط سنوياً حوالي ٨٠٠ سفينة تجارية، وتقوم شركة ملاحية إنجليزية برحلات أسبوعية من كل من بومباي والسويس حاملة الخراف . وتوجد معادن فحم في جنوب مسقط .

جزر البحرين :

يملك الإنجليز جزراً كثيرة في الخليج . والجزيرة الرئيسية (البحرين) في الأرخبيل تمتد إلى ٢٧ ميلاً طولاً و ١٠ أميال عرضاً . والجزر الصغيرة الأخرى هي كل من المحرق^(٢٢)، وسترا ونبيه صالح (خصبة جداً) والجزيرة (جزيرة صغيرة وفيها نخلة) . ويبلغ عدد سكان هذه الجزر ٧٠ ألف نسمة . والمدينة الرئيسية هي المنامة وتقع في جزيرة البحرين وعدد سكانها ٢٥ ألف نسمة . ويبلغ عدد سكان المحرق ٢٢ ألف نسمة . وتقع مدينة البديع في جزيرة البحرين ومدينة الحد في جزيرة المحرق . ويبلغ عدد القرى في الجزيرتين مائة قرية .

ويشكل صيد اللؤلؤ الحرفة الرئيسية وتشارك فيه حوالي ٩٠٠ سفينة ويتكون طاقم كل سفينة من ٨ إلى ٤٠ رجلاً . وتنتج البحرين التمر والبرسيم وتوجد فيها حيوانات والحمير من نوع ممتاز، كما تنتج البحرين قماش الأشرطة والحصران من القصب . وتبلغ صادراتها ٩ ملايين روبل والواردات ١٠ ملايين روبل^(٢٣) .

وخلاصة القول، توفر لنا هذه الوثائق معلومات قيمة عن الأوضاع في المنطقة، وعن الأعراف والتقاليد المتبعة بها والاتجاهات في التطورات السياسية والعسكرية والاقتصادية، كما أنها تلقي الضوء على بعض الجوانب الغامضة في العلاقات الروسية الخليجية، ويمكن اعتبارها كمصدر هام للمؤرخين .

أوليج رديكين

المراجع

- ١ - يعتمد هذا البحث على الوثائق الموجودة في الأرشيفات الرسمية الروسية وأرشيفات البحرية الروسية، سان بطرسبرج .
- ٢ - ضابط مدني من الدرجة الثامنة في روسيا القيصرية .
- ٣ - الأرشيفات التاريخية الرسمية، تقرير رومانوف فاسيلي اليكسيفيتش المؤرخ في ٢٠ أكتوبر ١٩٠٠ م . مجلد ن ١٠٧ ن ١ الجمعية الروسية للملاحة البحرية والتجارة . ١٨٥٦ - ١٩١٨ م .
- ٤ - نفس المصدر السابق .
- ٥ - الأرشيفات التاريخية الرسمية، مذكرة وزارة المالية إلى الجمعية الروسية للملاحة البخارية والتجارة، مجلد ن ١٠٧ ملف ن ١ .
- ٦ - الأرصاد الجوية من متن جليك .
- ٧ - أرشيفات البحرية، مجلد ن ٤١٧، ملف ١، وثيقة ٢٠٣٧ .
- ٨ - أرشيفات البحرية، مجلد ن ٤١٧، ملف ١، وثيقة ٢٠٣٢ .
- ٩ - أرشيفات البحرية، مجلد ن ٤١٧، ملف ١، وثيقة ٢٦١٣ .
- ١٠ - نفس المصدر السابق، وثيقة ٢٠٣٢ .
- ١١ - نفس المصدر السابق .
- ١٢ - تقرير لقائد الطراد بوبارين المؤرخ في ٣١ مارس ١٩٠٣ م . أرشيفات البحرية، وثيقة رقم ٢٦١٣ .
- ١٣ - نفس المصدر السابق .
- ١٤ - نفس المصدر السابق .
- ١٥ - نفس المصدر السابق .
- ١٦ - نفس المصدر السابق .

- ١٧ - الأرشيفات التاريخية الرسمية . تقرير عن رحلة السفينة البخارية "كورنيلوف" من ٣ فبراير إلى ١١ مايو ١٩٠١ م .
- ١٨ - أي إنشاء خط بحري بين روسيا والخليج .
- ١٩ - الأرشيفات التاريخية الرسمية . تقرير عن رحلة كورنيلوف، المجلد ن ١٠٧ ، ملف ن ١ ، الجمعية الروسية للملاحة البخارية والتجارة ، ١٨٥٦م - ١٩١٨ م .
- ٢٠ - أرشيفات البحرية المجلد ٤١٨ ، ملف ١ ، وثيقة ٣٩٠٧ ، ويبني التقرير على المصادر التالية :

- (١) تقرير قبطان السفينة جلياك عن الزيارة في عام ١٩٠٠ م .
- (٢) تقرير قبطان كورنيلوف ١٩٠١ م .
- (٣) تقرير قائد الطراد "اسكولد" ١٩٠٢ م .
- (٤) تقرير قائد بريارين ١٩٠٣ م .
- (٥) مجموعة التقارير من القناصل - ١٨٩٨ - ١٩٠٦ م .
- ٢١ - وصف للخليج العربي أوردته دائرة الإحصائيات الخارجية لوزارة البحرية الروسية . أرشيفات البحرية، مجلد ٤١٨ ، ملف ١ ، وثيقة ٣٩٠٧ .
- ٢٢ - الأسماء كما وردت في الوثيقة الروسية .
- ٢٣ - أرشيفات البحرية، المجلد ٤١٨ ، ملف ١ ، وثيقة ٣٩٠٧ .